شخصية العدد

الدكتور عبد العزيز الشناوى كما عرفته

د/ السعيد رزق حجاج

أستاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الأزهر

عميد كلية الدراسات الإنسانية للبنات

الدكتور عبد العزيز الشناوى
كما عرفته

عندما شرفنى سعادة الأستاذ الدكتور رئيس تحرير مجلة "مصر الحديثة" التى تعتبر أفضل المجلات التى صدرت فى السنوات الأخيرة باختيارى للكتابة عن شخصية العدد، المؤرخ العبقرى الدكتور عبد العزيز الشناوى الذى شرفت بأن أكون واحداً ممن تتلمذوا على يديه وعلى الرغم من سعادتى الغامرة بالكتابة عنه إلا أن حيرتى قد ازدادت لأسباب عديدة أهمها ضيق الوقت وتسارع الأحداث فى مصر بعد ثورة ٢٥ يناير بصورة لا تترك مجالاً لأحد فى المتابعة أو التفسير والتحليل والأهم أن الدكتور الشناوى يصعب تناول شخصيته فى مقالة سريعة كهذه من هنا كان القرار وهو أن تكون خواطر متضمنة الحديث عن الشناوى الإنسان قبل المؤرخ كما عرفته راجياً أن تتاح لى فرصة مناسبة للكتابة عنه وعن منهجه التاريخى ومؤلفاته فى عمل كبير يليق بمكانته كشيخ للمؤرخين المعاصرين.

ولد رحمه الله فى ٢٦/٩/١٩١١ بالإسكندرية من أسرة تنتمى إلى محافظة الدقهلية لأب يعمل بالتجارة وأم من أسرة معروفة فى مدينة أجا، وكان الابن الأكبر لثلاثة من الأشقاء هم أحمد وأنور وفتحى وشقيقة وحيدة هى زينب.

وبدأ دراسته فى الكتاب المجاور لمنزله بالإسكندرية وحفظ القرآن الكريم وهو ما أثر كثيرا فى تمكنه من اللغة العربية ثم التحق بالمدرسة الابتدائية فى رأس التين وتابع دراسته بمدرسة العباسية الثانوية وحصل على التوجيهية عام ١٩٣٠ ليلتحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية (القاهرة) وتخرج فى قسم التاريخ عام ١٩٣٤ وفى نفس العام التحق بمعهد التربية العالى ليحصل على دبلوم المعهد عام ١٩٣٦ . و قد تزوج عام ١٩٤٤ وأنجب أبنا وحيدًا أسماه محمدًا وكان قد التحق بسلك القضاء حتى تولى منصب نائب رئيس محكمة النقض،

حياته العملية:

بدأ حياته العملية مدرساً بالتعليم الثانوى بمدرسة السويس عام ١٩٣٦، ثم قام بتدريس اللغة العربية للعاملين بشركة قناة السويس وتنقل بعد ذلك بين عدد من المدارس فى المنصورة والإسكندرية إلى أن عين مدرساً بمعهد المعلمين بأسيوط عام ١٩٤٩ وأصبح عميداً لهذا المعهد عام ١٩٥٤ ولعل انشغاله بأموره المادية كان سبباً فى تأخر التحاقه بالدراسات العليا حتى عام ١٩٣٨ عندما التحق بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة وبعد عشر سنوات كاملة حصل على الماجستير عام ١٩٤٨ وكانت رسالته التى تقدم بها تحت إشراف المؤرخ الكبير محمد شفيق هى "السخره فى حفر قناة السويس" (عصر الوالى محمد سعيد) وتأخره فى الحصول على الماجستير يرجع إلى انشغاله بحياته العملية وإلى شدة الأستاذ شفيق الذى كما يقول الشناوى يصر على مستوى رفيع جداً للرسائل التى تعد تحت إشرافه ولا يدخل فى حسابه أى اعتبار للزمن الذى يستغرقه فى انجاز البحث.

ويقول الدكتور الشناوى فى مقدمة كتاب السخرة "لا أنكر أن الشدة العلمية التى تميز بها الأستاذ شفيق قد أرهقنى من أمرى عسراً، فكنت لا أكاد انتهى من البحث فى إحدى الجهات أو إحدى الهيئات وقد اعتقدت أنى قاربت على انجاز الرسالة حتى يوجهنى الأستاذ شفيق وجهة أخرى.....وهكذا لا يعرف للقناعة العملية حداً....".

وقد حصل الشناوى على الدكتوراه من كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٣ عن موضوع "السخرة فى حفر قناة السويس (عصر إسماعيل)".

وبدأت حياة الدكتور الشناوى بعد الدكتوراه تأخذ مساراً آخر حين انتهى به المطاف للعمل فى كلية المعلمين (تربية عين شمس الآن) وتدرج فى مناصبها ليصبح رئيساً لقسم التاريخ بها ثم أصبح أستاذاً فى عام ١٩٦٤.

ولقد كان اسم الدكتور الشناوى يمثل بالنسبة لى ولغيرى من الدارسين

للتاريخ حلماً بعيد المنال قرأت له بعض مؤلفاته وأنا فى المرحلة الثانوية ولم أتصور يوماً أن أكون واحداً من تلامذته والقريبين منه.

يمكن القول دون تحفظ أن الدكتور الشناوى من أبرز المؤرخين الذى جمعوا بين الثقافة العربية الأصيلة وإجادته للإنجليزية والفرنسية ومن يقرأ مؤلفاته العديدة يتأكد من ذلك تماماً.

عرفناه نحن تلامذته بدماثة الخلق وكريم الصفات والشجاعة الأدبية النادرة كان -رحمه الله- رقيق العاطفة نبيل الإحساس لطيف الشعور مثالاً للهدوء فى اباء وسكينة لكنه عندما يغضب للحق تراه بركانا هادراً.

وهو إجمالاً شخصية محترمة محببة إلى النفس عطوفاً مشجعاً لأبنائه وتلامذته لاسيما من كانوا يعانون فى الحضور من المحافظات المختلفة لمتابعة محاضراته فى الدراسات العليا، وكما تقول شقيقته زينب الشناوى كان مضيافاً كريماً يكثر من قراءة القرآن ومجاملاً لأبعد حد كما كان زاهداً فى متع الحياة ويجد نفسه فى البحث والتأليف والمحاضرات والندوات، والمناقشات التى كانت دائماً موضع اهتمام من كل الدارسين لأنهم واثقون تماماً أن الدكتور الشناوى يقدم لهم الجديد فى المنهج والتحليل والنقد.

كتب عن الأزهر والأزهريين مالم يكتبه أحد منهم ويكفى مطالعة موسوعة الأزهر جامعاً وجامعة وبحوثه الأخرى عن الأزهر ودوره فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر وأروقة الأزهر.

أحب جامعة الأزهر وظل يعمل بها فى إخلاص ونشاط وبذل الكثير من الجهد وتعرض للكثير من المضايقات من بعض الحاقدين ومن كان فى نفوسهم مرض، ترك الدكتور الشناوى مكانه شاغراً ومن الصعب أن يملأه أحد آخر ولو بعد حين. تناول فى مؤلفاته الموضوعات المعاصرة والموضوعات التى أغفلها الكثيرون وجاءت مؤلفاته وبحوثه تمثل طرازاً فريداً فى البحث والتحليل.

وعلى الرغم من عبقريته كمؤرخ وشهرته بين جميع الباحثين لكنه كان عزوفاً عن المناصب والأضواء فلم يسع إلى صحيفة يكتب فيها أو وسيلة إعلانية يظهر من خلالها.

ويفسر البعض ذلك باعتزازه الكبير بنفسه وجرأته فى قول الحق ومعارضته للاستبداد وكرهه الشديد للنفاق والتملق.

كان مثالاً فى الانضباط لا يقبل اعتذاراً عن موعد أو تهاوناً فى عمل يكلف به أحد تلامذته وكنا نعرف ذلك ونحرص على الالتزام بالمواعيد المحددة بكل دقة نسارع فى إنجاز ما يكلفنا به بمنتهى الدقة والجدية وإلا...

تعرفت على الدكتور الشناوى وأنا فى المرحلة الثانوية من خلال قراءة كتابه الرائع عن الزعيم المصرى "عمر مكرم" وكتابه "الجامع فى تاريخ مصر الحديث" وكذلك كتابه "السخرة فى حفر قناة السويس" وانبهرت بأسلوبه ومنهجه وقلت من الصعب أن أجلس إلى أستاذ بهذه الروعة ولعل بيت الشعر الذى كتبه الشاعر المتميز عزيز أباظة عن السد العالى.

كان حلماً فخاطراً فاحتمالاً ثم أضحى حقيقة لا خيالا

هذا البيت يعبر تماماً عن علاقتى بأستاذى الدكتور الشناوى فبعد انتهاء المرحلة الثانوية والالتحاق بقسم التاريخ بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بدأنا ندرس بعض مؤلفاته وفى مقدمتها كتابه البديع "أوربا فى مطلع العصور الحديثة" وروعة الأسلوب الذى كتب به فى التاريخ الأوربى وتفسيره للأحداث وربطة بين التاريخ الأوربى والتاريخ العربى.

ومرت سنوات الدراسة ولم نلتق بالدكتور الشناوى لكننا ندرس مؤلفاته ونقرأ بحوثه ونسمع عنه من تلامذته الذين سبقونا إلى أن كانت مرحلة الدراسات العليا وهنا أصبح الحلم حقيقة لنجلس إلى المؤرخ العظم ووجدناه طرازاً فريداً من الأساتذة من الصعب أن يتكرر علماً وخلقاً وانضباطاً فكانت محاضرته ممتعة

شيقة مليئة بكل جديد تمر الساعات الثلاث وكأنها لحظات تتقطع أنفاسنا ونحن نتابع ونحاول تسجيل ما نسمع.

كان يحاضرنا فى كل شىء فى تاريخ مصر الحديث وفى التاريخ الأوربى، فى تاريخ العرب الحديث، ثم نكون مبهورين وهو يتحدث فى تاريخ الدولة العثمانية بصورة غير مسبوقة، وكنا معه نصحح الكثير من الأخطاء التاريخية التى دُرِسَّتَ لنا فى المرحلتين الإعدادية والثانوية والجامعية وكأنها ثوابت وبديهيات، ولاحظنا على أستاذنا الفاضل عندما يأتى الحديث عن ثورة ٢٣ يوليو وجمال عبد الناصر يتغير كثيراً ويبدو الألم والضيق على وجهه، وكان يحول دفة الحديث إلى موضوع آخر وكان هذا موضع دهشه واستغراب لاسيما وقد كنا معجبين بالزعيم جمال عبد الناصر وفى جلسة خاصة معه فى شقته بمصر الجديدة كان السؤال عن هذا السر فكشف عن جانب منه وهو اعتقاله ووضعه فى السجن الحربى لسبعة أشهر ذاق خلالها أبشع أنواع التعذيب.

والدكتور الشناوى بكل تأكيد ينتمى إلى جيل العمالقة من المؤرخين الذين ظهروا فى القرن العشرين، ويصعب أن يتكرر هذا العدد فى جيل واحد وبالنسبة للشناوى يكفيه أنه تتلمذ على يد محمد شفيق غربال، وعاصر محمد فؤاد شكرى وأحمد عزت عبد الكريم ومحمد صبرى السربونى، ومحمد رفعت رمضان، وعبد الحميد البطريق، وصلاح العقاد، ويونان لبيب رزق، ومحمد أنيس، وأحمد الحتة، وعبد الرحيم مصطفى، وعبد العظيم رمضان، ومحمود صالح منسى، ومحمد عبد الرؤوف سليم، وزينب عصمت راشد، وليلى عبد اللطيف وعبد الرحيم عبد الرحمن وغيرهم كثيرون.

ظل الشناوى مجاهداً فى محراب العلم، تمثلت فيه سمات العالم الجليل، العزوف عن تولى المناصب الذى لم يبهره بريقها، وكان دائماً يردد فى أحاديثه أن المجد العلمى هو قمة الأمجاد لأنه مجد لا يبلى، بل هو مجد يعادل الزمن وجوداً.

وهو - كما يقول حسن صبرى الخولى يمثل طرازاً فريداً من أساتذة الجامعات، عاش فى رهبانية علمية وغدا عملاقاً فى مادته، شامخاً فى أستاذيته مثلاً أعلى للأستاذ الجامعى علماً وخلقاً امتازت مؤلفاته بالعمق والحيدة والشمول فأثرى الفكر العربى بألوان من الدراسات التاريخية الجذابة عرضهاً فى أسلوب ناصع مشرق وعلى نحو علمى دقيق.

وهو أشبه بالشجرة الطيبة المثقلة بالثمار تعطى ولا تشعر أنها أعطت ويستظل الباحثون والدارسون بظلها دون أن تضيق بهم لأنها شجرة وارفة الظلال أصلها ثابت. لم يشغل نفسه بإعارة أو سفر فى دول الخليج كغيره على الرغم من أنه لم يكن موسراً وكان معاشه فى أخريات أيامه أقل من ألف جنيه.

شرفت بأن أكون أحد تلامذته فى الدراسات العليا وكلفنى بكتابة بحث عن "لجنة ملنر ونفاق السياسة البريطانية فى مصر" أبان مرحلة الماجستير، وعند التسجيل للدكتوراه رفض عشرات الموضوعات التى عرضتها عليه وأرهقنى من أمرى عسرا، مما جعلنى أفكر ملياً فى التوقف عن الدراسة؛ ولكنه فى الوقت المناسب وافق على الموضوع الذى عرضته عن والى مصر عباس الأول (١٨٤٨-١٨٥٤) وقال بالحرف الواحد هذا ما كنت أنتظره فقد أهمله المؤرخون وقسا عليه بعضهم وهو فى حاجة إلى من ينصفه ويهيل التراب عن وثائق عصره وبدأت العمل فى جمع مادة هذا الموضوع فى صمت ومشقة من عام ١٩٧٦، عام ١٩٨٠ .

ولا أنسى ما حييت يوم المناقشة حين أمسك بالرسالة وهو يقول:" للتاريخ أقرر أنى لم أر فى حياتى كلها باحثاً كتب بهذا التجرد وهذه الروعة، وهذا العمق عن عباس الأول، وما كتبه سوف يدرس فيما بعد باعتباره المصدر الوحيد عن تلك الفترة" وأننى أحمد الله كثيراً أننى تتلمذت على يد هذا المؤرخ فقد علمنى الإخلاص فى العمل والشجاعة فى إبداء الرأى والانضباط فى كل شىء والنظرة المتأنية فى الحكم على الأشياء والترفع عن الصغائر وعدم الانشغال بتوافه الأمور والبعد عن الأضواء مهما كانت جاذبيتها.

وقد تعلمت منه الكثير وأهم ما تعلمته الحرص على مصلحة الوطن وإعلاء شأنه والتمسك بالثوابت والتواصل مع الآخرين لخدمة الإسلام وتاريخه.

حفظ -رحمه الله- القرآن الكريم حفظاً جيداً وكان يضايقه كثيراً أن يرى أحد تلامذته يخطئ فى نطق كلمه أو آية من القرآن الكريم، يجيد العربية إجادة تامة ويكتب بها مؤلفاته بأسلوب متفرد لايضاهيه أحد حتى فى محاضراته كان لا يتحدث إلا بالعربية الراقية، وفى واقعة طريفة أتى إلىَّ أحد تلامذتى بكتاب نزع عنه غلافه وسألنى بعد قراءة الصفحة الأولى لمن هذا الكتاب؟

ودون تردد وقبل أن أكمل الصفحة قلت أنه لشيخنا وأستاذنا الدكتور عبدالعزيز الشناوى وعنوان الكتاب هو:

وكانت المفاجأة أن الكتاب ويقع فى ٤٥٠ صفحة يحمل اسم أستاذ آخر فى جامعة عريقة من جامعات مصر هى جامعة القاهرة، وتأكد لى أن هذا الأستاذ تجرأ وسرق كل صفحات الكتاب ووضع أسمه عليها ودَّرسة فى غير حياء لطلابه وكدت أصاب بالجنون من هذه الجرأة وهذه السرقة الواضحة، وكتبت مقالاً لنشره فى إحدى الصحف المصرية تحت عنوان جريمة لا تسقط بالتقادم أكدت فيه أن الكتاب منقول حرفياً وبالكامل عن كتاب آخر للدكتور الشناوى ، وأنه يجب محاسبة هذا الأستاذ على جريمته وإعادة الحق إلى صاحبه وقارنت الصفحات بعضها ببعض وقدمت شهادات لعدد من المؤرخين وتعليقاتهم على هذا الجرم الذى ارتكبه هذا المدعى وشاءت إرادة الله أن يلقى هذا الأستاذ ربه بعد أيام قليلة ليحاسب على جريمته هناك وطلب منى رئيس تحرير تلك الصحيفة نشر المقال دون إشارة إلى أسم هذا الأستاذ لكننى ترددت كثيرا؛ لأن كليهما الصاحب الأصلى للكتاب والسارق باتا فى ذمة الله.

كان -رحمه الله- محباً للأزهر بصورة كبيرة، حريصاً على الطلاب وعلى النهوض بهم وتوسيع مداركهم والأخذ بيدهم إلى الطريق الواضح المستقيم، وكان يزعجه كثيراً عدم اهتمام بعض طلاب التاريخ بالأزهر باللغات الأجنبية، ويرى أن

ذلك يمثل نقطة ضعف واضحة، كما كان ينتقد عدم اهتمام معظم الأزهرين بالسياسة العامة، على الرغم من أن مصر كانت تعيش وقتذاك مرحلة حرجة فى تاريخها الحديث.

تتلمذ على يديه كثيرون من مؤرخى الأزهر وعلمائه وعلى رأسهم الدكتور مصطفى رمضان والدكتور السيد الدقن، والدكتور عبد الشافى عبد اللطيف، والدكتور محمد أبو سعدة، والدكتور محمد على حلة، والدكتور حسين الهندى، والدكتور محمد صابر عرب، وكاتب هذا المقال.

أشرف الدكتور الشناوى على مئات الرسائل فى جامعة الإسكندرية وعين شمس والأزهر وناقش الكثير من الرسائل.

وآخر رسالة أشرف عليها فى حياته كانت رسالتى تحت عنوان: "العلاقات المصرية العثمانية فى عصر عباس الأول"، عاش - رحمة الله- فى صمت ومات كذلك وحيدا لم يشيعه إلى مثواه الأخير إلا محبوه وتلامذته والشىء المؤسف أن الصحافة المصرية لم تهتم كثيرا بموته ولم يلق معشار ما يلقاه لاعب كرة من اهتمام على الرغم من كون الشناوى شيخ المؤرخين المصريين بحق.

تناول الدكتور الشناوى كتابة التاريخ وتحليله بأسلوب متفرد وحياد تام وموضوعية تظهر فى كل كلمة يكتبها.

لم يتحدث عن نفسه، بل عكف فى صمت ورهبانية على إخراج روائعه وملفاته "كالعقد الفريد"، وآخر تلك الأعمال المتميزة كانت موسوعة "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها" التى قضى فى تأليفها أكثر من عشرين عاماً لتخرج فى النهاية بصورة غير مسبوقة وتلقت اهتمام الأوساط العلمية فى مصر والعالم العربى وصدر آخر جزء منها وهو الجزء الرابع بعد وفاته - رحمه الله- تحدث عن الدولة العثمانية لأول مرة فى الشرق العربى بحياد تام وانصاف كامل وفند ما كتبه الغربيون عنها، ومع ذلك تناول فى موسوعته سلبيات تلك الدولة مفصلة.

كما سجل بفخر واعتزاز ما قدمته للعالمين العربى والإسلامى أخيراً وبعد هذه الخواطر عن شخصية الدكتور عبد العزيز الشناوى نتناول فى إيجاز شديد رحلته مع التاريخ حتى وفاته -رحمه الله- فى عام ١٩٨٤ .

محنة الشناوى:

بعد أن أعتقد أستاذنا أن حياته بدأت تتغير للأفضل وأن الدنيا بدأت تبتسم له وتسابقت عدة كليات على الاستعانة به، كما انتدب لتنظيم الوثائق فى قصر عابدين. وانتدب فى عام ١٩٥٤ بمكتب مندوب الحكومة لدى شركة قناة السويس بمقر قيادة الثورة بالجزيرة وتسبب هذا الانتداب فى اعتقاله أواخر ذلك العام.

وقد وقع ذلك الاعتقال عندما نسب إليه التسبب فى فقدان إحدى الوثائق المهمة التى تحوى أسماء المساهمين فى شركة قناة السويس وصور خصوم الدكتور الشناوى والحاقدون عليه ضياع الوثيقة بأنها مؤامرة يشارك فيها لصالح جهات أخرى مما سيكبد مصر أعباء مالية باهظة. تم اعتقاله وأودع السجن بالعباسية حيث تعرض لأبشع أنواع التعذيب وتولى التحقيق فى الواقعة النائب العام وقتها "على نور الدين" وبعد عشرة شهور من الاعتقال ذاق فيها الدكتور الشناوى كل ألوان العذاب حتى نحل جسمه وأصبح غير قادر على التعرف على من حوله وشعر بحزن شديد ظل ملازماً له حتى بعد الإفراج عنه فهل يعقل أن يتعرض أستاذ جامعى كبير بحجم الدكتور الشناوى لكل هذه الأنواع البشعة من التعذيب وبعد عشرة شهور من الاعتقال أخلى سبيله بعد أن أجبر على التوقيع على تعهد بعدم المطالبة بالتعويض عن فترة اعتقاله أو حتى التلميح بما حدث له لأحد وأن للسلطة المختصة أن تعيد اعتقاله دون إبداء الأسباب خلال عشر سنوات من تاريخ الإفراج عنه ، وتحكى شقيقته أنها حصلت بعد محاولات شاقة على إذن بزيارته وهالها ما رأته حتى بلغت بشاعة التعذيب أنه لم يتعرف عليها.

ويحكى ابنه المستشار محمد الشناوى عن أسباب اعتقاله أنه سئل من قبل

رئاسة الجمهورية قبل تأميم قناة السويس عن الوثائق الخاصة بالقناة والتى تعطى لمصر الحق فى التأميم وأنه أبلغهم ببعض هذه الوثائق وأرقامها وبحثوا فى دار الوثائق فوجدوا الأرقام ولم يجدوا الوثائق نفسها واعتقدوا أنه قد أخذها وباعها لبعض الدول المستفيدة من هذه الوثائق وصور خصومه الأمر بأن ضياع هذه الوثائق سيكبد مصر أعباء مالية باهظة وظل يعامل بهذه القسوة وهذه الوحشية على الرغم من محاولات بعض المحامين الذين كلفوا من قبل الأسرة بالبحث عن مخرج لهذه المشكلة حتى أثبت المخابرات المصرية أن الوثائق هربت إلى فرنسا عن طريق أحد الموظفين بالدار وثبت براءة الدكتور الشناوى وأفرج عنه لكن هذه الواقعة أثرت تأثيراً بالغاً من الناحية النفسية على الدكتور الشناوى حتى أنه كان يتحاشى الحديث عنها وقد حاولت معرفة الحقيقة منه لكنه رفض الحديث قائلاً لم يحن الوقت بعد لكشف تفاصيل ما حدث وانتقل إلى جوار ربه قبل أن يكشف هذا الأمر وأما تفسير ما حدث له من قهر وتعذيب وحشى فى السجن الحربى، وترك أثراً لم يمح حتى وفاته فهو أن طبيعة هذا النظام القمعى كانت تتعامل مع المصريين بهذه الوحشية وهل سجل أحد ما حدث لقائد الثورة وأول رئيس للجمهورية اللواء محمد نجيب من اعتقال ومعاملة سيئة طوال عصر عبد الناصر، كما أن الآلاف من أصحاب الرأى والفكر ذاقوا مرارة السجن، حتى قال البعض أن مصر كلها أصبحت سجناً كبيراً لأبنائها.

والأهم أن نظرة الرئيس عبد الناصر إلى أساتذة الجامعات فى مصر كانت نظرة متدنية للغاية وفيها الكثير من التعالى. ويكشف هذه الحقيقة بوضوح ذلك الحوار الذى دار بين الرئيس عبد الناصر وأحد أساتذة الجامعات ونقله الدكتور محمد صفى الدين خربوش فى مقال له تحت عنوان التحولات الثورية فى النظام المصرى.

ذكر عبد الناصر فى كتابه "فلسفة الثورة ".. لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متناهية وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور

فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدساً إلى الهدف الكبير أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ويأتى بعدها الزحف المقدس.

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو. كانت الجموع التى جاءت أشياعاً متفرقة متناثرة وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر.

كنا فى حاجة إلى النظام فلم نجد وراءنا إلا الفوضى.......كنا فى حاجة إلى العمل فلم نجد إلا الخضوع. أكثر من هذا رسم الزعيم صورة أكثر قتامة حين يقول" وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقاً معيناً وطال عليها الطريق وقابلتها المصاعب وتعرض لها اللصوص وقطاع الطرق فتبعثرت القافلة كل جماعة فيها شردت فى مكان وكل فرد سار فى اتجاه".

وفيما يتعلق بالحط من قيمة النخبة المثقفة والإعلاء فى نفس الوقت من شأن الضباط الأحرار يقول عبد الناصر: "أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء وتكلم أمامنا منهم كثيرون وتكلموا طويلا ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يقدم لى أفكارًا وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لى نفسه وكفاياته الخليقة وحدها بعمل المعجزات ورمقنى كل واحد منهم بنظرة توحى أنه يؤثرنى على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود، وأذكر أننى لم أتمالك نفسى فقمت بعدها أقول لهم، إن كل فرد فينا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة، وإن واجبه الأول أن يغطى كل المهن ولو أنكم كأساتذة جامعات فكرتم فى طلبتكم فقط وجعلتموهم- كما يجب- عملكم الأساسى لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن، إن كل واحد يجب أن يثق فى مكانه ويبذل كل جهده، لا تنظروا إلينا لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا فى صفوف الجيش كجنود محترفين وإذن لبقينا فيه.

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن أقول لهم أنهم قبل أن يدعوهم الطارئ الذى دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم ولم أشأ أن أقول لهم أن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب وهذا دليل امتيازهم من ناحيتهم كجنود محترفين، ولم أشأ أن أقول لهم شيئاً فى ذلك لأنى لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم اخوتى وزملائى.

فالجماهير مترددة خائفة وفى حالة فوضى وهى عبارة عن قافلة مبعثرة بعضها شارد وبعضها الآخر يجرى وراء السراب .وأساتذة الجامعات منافقون لا أفكار لديهم أما أعضاء قيادة الثورة فعرفوا بالشجاعة والتميز وهم الطليعة التى ستجمع الشاردين والتائهين وتضعهم على الطريق السليم".

كانت تلك هى وجهة نظر عبد الناصر إلى النخبة وإلى أساتذة الجامعات، وهل نستغرب من مثل هذا النظام الذى ينظر إلى أساتذة الجامعات هذه النظرة أن يتعامل مع النخبة بالتقدير والمودة؛ لكن الحقيقة أنه تعامل معهم بصلف شديد وترك زبانيته فى المعتقلات يعاملوهم بوحشية ويستخدموا معهم كل وسائل التعذيب التى لم تعرف فى أى عصر من العصور.

والحقيقة المؤلمة أن هذا المؤرخ العبقرى دفع ثمناً باهظاً لهذه الوشاية وذلك الاستبداد حيث سجن وعذب دون تحقيق أومراعاة لسنه أو مكانته العلمية

والأدبية.

ومن يقرأ كتاب عبد الناصر فلسفة الثورة يعرف جيداً كيف كان ضباط الحركة ينظرون إلى الجامعات وأساتذتها.

خاتمة:

على الرغم من المحنة التى تعرض لها الشناوى إلا أنه بعد أن ظهرت براءته بذلت محاولات لتعويضه ومنها منحة جائزة الدولة التشجيعية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماع عام ١٩٧٢ فى عصر الرئيس الراحل أنور السادات.

كما منح فى عصر السادات كذلك وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى ٣ فبراير ١٩٧٣ بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التشجيعية كما حصل على وسام الجمهورية من الطبقة الثانية بمناسبة إحالته إلى المعاش وقد أصبح عضواً بلجنة التاريخ والآثاروعضواً باللجنة العلمية الدائمة للتاريخ عام ١٩٧٢ .

وفى عام ١٩٨٠ أصبح عضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وأما عن أعماله ومؤلفاته فمن الصعوبة تناولها فى مقالة بهذا الحجم ولكن نشير إليها بإيجاز على أمل أن تتاح الفرصة الكاملة لاستعراض هذه الأعمال والتعليق عليها بشكل مفصل فيما بعد.

وهو كما يقول المؤرخ الراحل عبد العظيم رمضان من المؤرخين العظام الذين لا ينافقون أحد ويدركون جيداً أن المؤرخ صاحب رسالة.

ومن أشهر أعمال المؤرخ الراحل الدكتور الشناوى:

- "السخرة فى حفر قناة السويس:"
- "وثائق ونصوص فى التاريخ الحدث والمعاصر"
- "أوربا فى مطلع العصور الحديثة"

- "عمر مكرم" فى سلسلة اعلام العرب
- "دراسات فى تاريخ مصر الحديث"
- "تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر"
- "قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بها"
- "الأزهر جامعاً وجامعة"
- "دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر"

وآخر أعماله وإنجازاته موسوعته التى لم تكتمل وصدر الجزء الرابع منها بعد وفاته: "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها".

وقد عكف فى صمت ورهبانية على كتابة تلك الموسوعة حتى أخذت منه أكثر من عشرين عاماً ليكون بحق عملاً علمياً رائعاً ومبهراً انتظره الباحثون بشغف كبير ومازال أكثر الكتب العربية مبيعاً حتى الآن فقد تناول الدولة العثمانية بلغة راقية وتحليل واف لم يترك شارده ولا وارده إلا أتى بها،وناقش ما كتبه المؤرخون الغربيون عنها باستفاضه.

وقد لقى الدكتور الشناوى ربه راضيا مرضيا فى يوليو ١٩٨٦ بعد حياة حافلة مليئة بالإنجازات جعلته واحدا من كبار المؤرخين المعاصرين.

وأخيراً اعتذر لقراء تلك المجلة الراقية المتخصصة عن هذا الإيجاز فالدكتور الشناوى مؤرخ عظيم يحتاج إلى مجلد للحديث عنه وعن سيرته الذاتية وأعماله الكثيرة لكن كما يقال مالا يدرك كله لا يترك كله.

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خيراً عما قدم للمكتبة العربية من نفائس بلغة وأسلوب لا نظير له بين المؤرخين القدامى والمحدثين.

أسانيد المقال

- السعيد رزق حجاج: خواطر وحوارات مع الدكتور الشناوى فى حياته.

– السعيد رزق حجاج: مقدمة رسالة الدكتوراه التى أشرف عليها الدكتور الشناوى عام ١٩٨٠ .

– الزعيم جمال عبد الناصر: فلسفة الثورة. القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر.

– صفى الدين خربوش: التحولات الثورية من مقال ضمن أعمال المؤتمر السنوى للبحوث السياسية تحت عنوان النظام السياسى المصرى جامعة القاهرة– كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٨ .

– لقاء مع المستشار محمد الشناوى.

– بعض مؤلفات الدكتور الشناوى ومنها: السخرة فى حفر قناة السويس طبعة ١٩٦٦ .

– أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ١٩٦٩ .

– الأزهر جامعا وجامعة، ١٩٨٤ .

– عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، ١٩٦٧ .

– الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها فى أربعة أجزاء صدر أخرها فى ١٩٨٦ .

– بعض المحاضرات الخاصة للدكتور الشناوى.

– مقدمة كتاب د. حسن صبرى الخولى: سياسة الاستعمار والصهيونية– فى فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ص ٥١–٥٢ .

– بهاء علوان: الشناوى مؤرخا.

– د. عبد العظيم رمضان مقال عن الشناوى فى مجلة أكتوبر، ١٩٨٧ .

– حديث خاص مع المؤرخ الراحل الدكتور جلال يحيى.